

٣ - أخلاق القرآن

الوفاء بالعهد

للدكتور عبد الوهاب عزام



الوفاء بالمعهد خلق يقتضيه الإنصاف والصدق ، وتوجيه الروعة وكرم النفس ، وتحتمه الرجولة والنبل . ما أسفر وما أذل وما أخس للنفس التي تتخذ عهداً وسيلة إلى التفرير بمن تعاهده ، وتجعل عينها سبيلاً إلى أن تفجئه وهو آمن مطمئن . للتأدير كاذب حانت خادع ، قد جعل كلامه وعهده حيلة لمآربه ، حيلة واهية ذليلة كحيلة المنكبوت بصيد بها الذباب ، ودب من وراء الأمن إلى خصمه كما ندب للثعالب والذئاب . أين هذا من الإنسانية في أخلاقها العالية ، والرجولة في سجايها الحرة ؟ وأين هذا من أخلاق القرآن كتاب الإنسانية الكاملة ؟

القرآن الكريم يأمر بالوفاء بالمعهد ، ويؤكد الأمر به ، ويعظم شأنه ، ويكبر الموفين ، وينهى عن التأدير ، ويشدد في النهي عنه ، ويقبحه ، ويلعن التأديرين

ومن يتدبر آيات القرآن يجد المعهد فيها ضربين : المعهد العام ، والمعهد الخاص ؛ فأما المعهد العام فهو أداء الواجب الذي يقتضيه عمل الإنسان ، فمن تولى عملاً فقد عاهد أن يفي به على الوجه الأكمل . فإذا لم يفعل فقد خالف المعهد ، ومن آمن بدين فقد عاهد أن ياتر بأوامره وينتهي بنواهيه فإن لم يفعل فقد نقض المعهد . ومن دخل في جماعة فقد عاهد على أن ينفعها ولا يضرها ، فإن ضرّها أو قصر في نفعها فقد غدر . ومن تصدى للدفاع عن أرض أو جماعة أو عقيدة فقد عاهد ألا يألو جهداً في الدفاع . فإن نكس فقد خان . ومن أوتى علماً أو عرقاً حقاً فكأنه عاهد أن يبيّنه للناس ليهتدوا به ، فإن كتمه فقد خاس بهمه . وهكذا

تقرأ في الكتاب الكريم : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبییننّه للناس ولا تكتمونه ، فنهبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشتررون » « وإذ أخذ الله ميثاق

للتبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنه . قال أأقررتم وأخذتكم على ذلك إصرى ؟ قالوا أقرنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . » « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وأخذنا منكم ميثاقاً غليظاً . ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً . »

فهذه مواثيق عامة تضمنتها رسالة الأنبياء وعلم الدين أوتو للكتاب ، كأن النبوة عهد على الوفاء بما تقتضيه الرسالة من الدعوة والإصلاح والنصب واحتمال الأذى والصبر وكأنها عهد على أن ينصر النبيون الحق وينصروا من جاء به

وكذلك للعالم الذي تحمل أهل الكتاب أمانته . هو عهد عليهم أن يسلّموه للناس ويظهروه غير مباليين ما ينفعهم وما يضرهم في إظهاره ، وكذلك كل من عرف حقاً وهُدَى إلى معرفة ، وكل من ولي ولاية للناس ، وكل من وكل إليه عمل ، كل هؤلاء كأنهم عاهدوا الله والناس على أن يُعرفوا للناس ما عرفوا وأن يؤدوا أعمالهم على الوجه الأحسن

ومن ذلك قول القرآن الكريم في وقعة الأحزاب : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمهم من قضى نجه ومهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً . ليجزي الله الصادقين بصدقهم . »

فهذا المعهد هو ما التزمه المسلمون حين قبلوا الإسلام من القيام بفروضه ونصرته والدفاع عنه والاستماتة في تأييده والتقسيم الثاني من المعهد الخامس : معاهدة رجلين أو فريقين على أن يسالم بعضهم بعضاً وأن يجتنبوا الضرر فيما بينهم ، أو تحالف فريقين على أن يتعاونوا على عمل ، وهكذا ؛ وهذه للمهود شائمة بين الناس منذ اجتمعوا واحتاج بعضهم إلى بعض وخشى بعضهم بعضاً

وقد حث القرآن على الوفاء بالمعهد كله ويالنح في الأمر به . يقول في سورة الأنعام : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى . وبمهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » . وفي سورة الإسراء : « وأوفوا بالمعهد إن المعهد كان مستولاً » .

عن قليل في جانب هذا الأمر العظيم . وكل ربح تتوهمونه في ذلك خسران كبير

وقد أتى القرآن كثيراً على الموفين بالعهد ، قال في وصف المؤمنين المفلحين : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وقال في وصف الخيرين البررة : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » . وقال : « إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهدهم الله ولا ينقضون الميثاق » . وقال : « بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين »

هذه إشارات القرآن بالموفين بالعهد ، وثناؤه عليهم بكل خير تعظيماً لهذا الأمر العظيم

وأما الذين لا يوفون بعهدهم فقد ذمهم القرآن وشنع عليهم فقال : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون » . وقال في موضع آخر : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء العذاب » . وقال في جملة من أهل الكتاب نقضوا العهد : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية » . واستمع إلى هذه الآية الهائلة التي تبين غضب الله على من ينقض العهد ابتداءً منعمة : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولم يذهب عنهم ألباب العذاب » .

وقد أخرج القرآن ناقض العهد من الإنسانية وجعلهم من الدواب بل جعلهم شر الدواب في قوله :

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل صرة وهم لا يقفون » ألا ترى أنه جعل الذين كفروا شر الدواب ثم وصفهم وصفاً يلائم هذه الحال فأخبر أنهم لا يثبتون على عهد كلما عاهدوا نقضوا عهدهم . كما قال في آية أخرى : « أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ »

راعى القرآن اليهود وأعظم شأنها حتى أوجب الهدية في قتل

وفي سورة النحل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يلوكم الله به ، وأسببنا لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولا تشتروا بعهدهم ثمناً قليلاً ، إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعملون »

يأمر الله سبحانه في هذه الآيات الجامعة بالعدل والإحسان وصلة الأرحام ، وينهى عن الفحشاء وكل منكر ، وعن البغى على الناس . وهذا أمر بكل خير ونهى عن كل شر

ثم يخص الوفاء بالعهد قياً به ويسميه عهد الله ، وكل عهد بين اثنين يسمى عهد الله ، لأن الله رقيب على أعمال الناس ، وقد أمرهم بأن يصدقوا ويحسبوا ويفوا بالعهود ، ولأن العهد قسم بالله وشهادة الله على الوفاء . وأكد الأمر بقوله : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . فالإنسان حين يماهد يشهد الله على عهده ويجعل الله كفيلاً عليه بالوفاء ، فكيف تنقض صفقة تكفل بها الله ؟ إن الإنسان ليتخذ كفيلاً من وجهاء الناس فيحرص على الوفاء بعهده إكراماً لهذا الكفيل وحياء منه ، فكيف بمن جعل كفيله الله ؟ ثم نهام أن تكون أمورهم لمباً وعتكاً ، يذلون وعودهم وعهودهم وأيمانهم ثم ينقضونها ، كالرأفة الحقاء التي غزرت ثم نقضت غزها ؛ ذلك عبت وصغار لا ترضى به النفوس الكريمة للكبرية الحرة . نهام أن يفعلوا ذلك وأن يتخذوا أيمانهم غشاً وفساداً إذا لاح لهم نفع في نقض العهد ، إذا وجدوا أن جماعة عاهدوها هي أقل عدداً وقوة من جماعة لم يماهدوها ، فهم يريدون أن ينقضوا عهد الضيف ليرضوا القوي أو يحالفوه . وهذا معنى قوله :

« أن تكون أمة هي أربى من أمة » . ثم قال : « ولا تشتروا بعهدهم ثمناً قليلاً » . يعنى : لا يحملكم على نقض العهد نفع تناولوه من وراء نقضه ، فإن كل ما تناولون بنقض العهد هو